شيء من فلسفة التاريخ

على شاطىء طفولة نابليون بونابرت

بقلم الدكتور احمد فريد رفاعي

—٥—

في يوم ١٥ اغسطس سنة ١٧٦٩ ذهبت السيدة « لتزيا راموليتو » الى الكنيسة المجاورة لمسكنها بمدينة « اجاكسيو » عاصمة كورسيكا للصلاة أو لسماع قداس حفلة العيد. ويخبرنا « ده لاس كاس » كما يخبرنا جل مؤرخي حياة نابليون ان الوالدة القوية في كل شيء. القوية في احتمالها اعباء الحياة ، واضطلاعها بأساء العيش وإضاقته ، وصروف الدهر وغضاضته . القوية في جسمها وعقلها . القوية في خلقها وارادتها . . . . . هذه الوالدة اضطرت وهي في الكنيسة يومئذ الى العودة سراعاً الى منزلها حينما شعرت بدبيب المخاض وقد امسكها من التلابيب . وغلبها على امرها قبل الوصول الى غرفتها ، فولدت طفلها العظيم على طنفسة اثرية الشكل عليها صور ابطال الالياذة

وهكذا وطئت قدماه منذ ولادته على هام العظماء الذين سبقوه ليكونوا خيال شاعر ، ويكون موضع بطش . ولتكون عظمتهم ازاء عظمته بمثابة جثث [illegible] كتبت له فيها الحياة . وهكذا ولد ليمشي اثر الجميع ، وليكون فوق هام الجميع . . . . . !

ومن هذه الولادة الشاذة التي جاءت فجأة وسراعاً وعدواً وجرياً جاء الحياة رجل شاذ هو الآخر . رجل يخلق الظروف . رجل غير مكسال يبادر الخصوم . رجل تهزه ليس بالقصدة ولا الجثمة . رجل عدو وجري . رجل اقتناص للفرص واهتبال للمواقع ، رجل انتزاع لقادة الانتصار من روح المواقف وفي اشق المطامع . رجل وكفى كما يقول جوته « الرجل وكفى » . . . . . »

ولقد جاءت هذه الولادة الشاذة بسمة من سمات الدهر لمولود الشاذ ايضاً . جاءت في وقتها وابانها . ولو جاء نابليون الى العالم قبل شهرين اثنين لجاء من حيث رعوية ولادته ايطالي الاصل . . . اما الآن فكورسيكا قد اتحت في بحر هذين الشهرين فرنسية التبعية والآن لنرجع الى حديث « أبوت » في حداثة نابليون :

واسة نبوليون

نقلا عن صورة زرتية خيدار

أما مسكن مدام بونابرت الام، فقد اتخذته في الريف بعد وفاة بعلها . والمرأة القديرة فقد تخلق من الكهوف قصوراً ، وتخلق من الاكواخ آطاماً ودوراً ، ثم هي تتخذ مع إضافتها مصيفاً مشكوراً ومشتى مبروراً

والمرأة القديرة ذوق قدير ، والطبيعة سخية مع كل قدير ، فمعقول إذن ان ننتظر حديقة تشتجر اغصانها وتتعانق ازهارها وتتلاقى ورودها مع استماع لتلك البعوث الشمسية التي ترسلها سماوات البحر الابيض المتوسط على جزيرة كورسيكا في صحو ، ودفء ، وضرام. ومعقول ان يتخذ الاطفال الصغار من ذلك كله فراغاً وملعباً ومراحاً . ولكن لم يكن بمعقول ولا بمنتظر ان ترف « جوزفين » ابنة الهند الغربية الثانية المولد السحيقة المنبت الى نابليون الثاني عنها مزاراً وداراً الا اذا كانت بنوت الشمس المتوهجة القوية كانت لها ملائكة وجنوداً ووسطاء ورسلاً !

ولكن الوليد نابليون ... ولكن قطعة الطبيعة الشاذة الحيارة التي خلقت ليذعن لها الغير وليزل الجميع على ارادتها ومشيئتها ماذا كان منها في طفولتها . ثم ماذا اتخذت من اقانين اللهو واشتات العبث في ذلك الفراغ والملعب والمراح ؟

يحدثنا الاستاذ « ابوت » بنوعين من عبث نابليون في طفوليته . وعبث العظيم عظيم في دولة العبث . وهو حريٌّ بتسميته تلك . وإلا فماذا تسمون لمعركم هروع نابليون في كل يوم الى ذلك « الكهف » المقدود في بطن جلمود من الجرانيت في عزلة وانفراد وفي موطن شعري في خشونة وسذاجة

هذا الكهف أو الصومعة «جيرون [illegible]

[illegible] ذكر ونباهة العرفان بفضل من حجَّ اليه أولاً . ويحدثنا « ابوت » انه بينما اخوة نابليون في لهو وأضاحيك ، ومباهج وسابث ، كان الطفل الشاذ يفضل من بينهم في استراق وشرود ويفزع الى صومعته يكتاب في يمينه فإما قراءة واستيعاب ، وإما استشراف للحياة من علٍ في صمت وتفكير

أفتسمون هذا لمعركم العبث واللعب ؟

النوع الثاني ما اتخذهُ من أدوات الحرب والكفاح في طراوة اهابه بما يتفق وسنه وميله ولا تزال بعضها تحدثكم بما كان لها من فضل عظيم على الصغير العظيم

أفتسمون هذا لمعركم بالعبث واللعب أيضاً ؟

وهناك عشرات الأمثلة قدت من هذا الطراز ، ونبعت من معينه ومنهله مثل قلاع الثلج وهجمات المحاربين في مواقع الثلج ، ومثل رسومات على الحيطان لكتائب مصفوفة

وجيوش سائرة في انتظام ، ولست أدري أكان الطفل يفهم ما تتحرك يداه ، ويحيش قلبه وأخيراً أتسمون هذا العبث والعب ؟

وهنا يجب أن يقيد علماء التربية والنفس ملحوظاتهم العلمية بتنمية أمثال تلك النزعات في الاطفال ، واستغلال عناصر القومية ، وتنظيم جهودها النيّرة ، وهنا يجب أن يمدهم التاريخ في بحث واستقصاء بتلك النواحي الخصبة في موضوعاتهم الخصبة

وهنا مسألة هامة هي الاخرى في تكوينه الخلقي . أو هي نزعة نترك أمر تحليلها لعلماء التربية وعلينا كمؤرخين فقط ان نحاول أن نكون منصفين وغير مصابين بسرطان « اللوبس يوزوليانا » أن نثبتها ونقيدها بما فيها من خير أو شر فقد أجمع عليها الكثيرون من ثقات المؤرخين إلا من اجترفتهم تيارات بطولته وأعاصير عظمته

كان البطل نابليون مندفعاً ، واثقاً من نفسه ، وجانحاً الى ان يهتاج ويغضب . نزاعاً الى سوء الخلق . واذا افترضنا فيه من طفل مثله وحدث من زميله المسكين ما لم يقع في نفس نابليون موقع القبول فواحرياه .... وفي اقدام ، وعض اناب ، وكلوم أظافر ، تنهال على المسيء اليه أو سيء الطالع في ملاعبته

ولقد حاولت « لنزيا » أم بطلنا العظيم أن تستأصل منهُ تلك الخلة ، فلم تصب إلا القليل من النجاح ، وهي هي الصارمة عند الهنات والهفوات ، الناهرة الضاربة ازاء السقطات والكبوات ، ذلك لأن طبيعة الطفل تنبو عن كل تدخل ووساطة حتى الى اخريات أيامه

ولعلكم تدهشون لقولي ان الأم العظيم الرءوم كانت صارمة الى درجة الضرب ولكنني سأنقل لكم قصة رواها نابليون نفسه . ورواها حينما كان امبراطوراً

كان الى جانب البيت حديقة . وفي الحديقة شجيرات تين . وكان نابليون الطفل محبّاً لتسلق هذه القلاع . قلاع شجيرات التين ... وهذا النوع من العبث هو لعمركم من النوع الثاني الذي حدثتكم عنهُ .... قلاع الثلج ومواقع الكرّ والفرّ والقذف بكرات البرد المتجمدة .... وطبعاً كانت الأم تخشى من تسلق الطفل الصغير وقوع حادثة سقوط أو خلافه وكانت تحظر عليه أن يتسلق تلك الأشجار ... قال نابليون « فني ذات يوم كنت كسلاً فارغ اليد مما أعمل فوضعت في رأسي فكرة الحصول على بضع تينات . لقد كانت ناضجة وليس من ناظر ولا مشاهد . وليس من أحد سيعلم بما كان مني ، فلذت بالفرار من البيت وجريت الى الشجرة وجمعت كل ما عليها . ولما قضيت لبانتي وأرضيت شهيتي رأيتُ ان آخذ للمستقبل عدتهُ فملأت من التين جيوبي . وهنا لبخس طالعي بصر بي الجنان فكنتُ كنصف ميت من الهلع وبقيت حيث أنا قابعاً فوق غصن البان حيث أتى الرجل وأراد

أن يقبض عليّ ويأخذ بي الى أمي . وهنا جعلني اليأس بليغاً ، فأظهرت لوعتي وأسفي ، ووعدت بالابتعاد عن التين في مستقبل أيامي ، وقد ظهر لي الرجل بمظهر الراضي فهنأت نفسي بالخروج من الورطة سليماً معافىً ، واثق في روعي ان مخاطرتي تلك يدل عليها الستار ولا يعلم عن أمرها شيئاً . ولكن الجبان الخائن أفضى بالأمر الى الجميع . وفي اليوم التالي أرادت والدتي أن تذهب لجمع شيء من التين فحضر اليها الجنان ... وهنا تتابعت عليّ اللعنات والانفجارات ...اه » « الضرب طبعاً .. !! »

وهنا موضع للاستطراد يجب المضي فيه حين تحدثنا عن أخلاق طفلنا العظيم

يقول الاستاذ ابوت « ان نابليون لا يمكن اعتباره طفلاً ودوداً ، ذلك لأنه كان صامتاً نزاعاً الى العزلة مكتئباً سهل التهيج والاثارة ضجراً متبرماً بما يقيده ويعلمه . ولم يكن ميالاً الى مصاحبة الاقران ، ولا راغباً في اللهو واللعب ، ولم يكن بالطروب أو المرح في نفسه ولا بالصريح في طبيعته . ومع ان أشقاءه وشقيقاته يعترفون جميعاً بتفوقه وزعامته يبدو انهم لا يحبونه . ولقد قال أحد أعمامه في ذلك الحين ان يوسف هو اكبر افراد الاسرة ولكن نابليون هو رئيسها . ولقد كان من جراء نشاطه القوي وخلقه النافذ ان شقيقه يوسف الحولي المعتدل المحبوب في غير ادعاء كان واقعاً في قبضة ارادته . وقد لوحظ ان كبرياء نفسيته لا تلين قناتها شدة العقوبة . وانه يحتمل إيذاءه في ثبات من غير أن تهمل عيونه بالبكاء.

وفي ذات يوم اتهم نابليون ظلماً بعدوان إجتراح مأثمة اقترفها سواه فاحتمل نابليون العقاب في صمت كما احتمل وزر الاتهام وعقوبة الحرمان من الاكل لثلاث أيام كاملات وفضل ذلك كله عن خيانة زميله . وما فعل ذلك ذوداً عن صداقة خاصة مع من أخطأ وانما فعله نوازع نفسي وثبات في الخلق

« انه فوّار النزعة فغضبه يثار في سهولة ثم يزول سراعاً . ولا يوجد في طبيعته نزعات الى القسوة ولا يملك الحقد في حوزته .... »

— ٦ —

والدة نابليون المثقفة الصارمة ، والوالدة الكاملة ، قد اقتطعت على الارجح سويعات او لحظات من يومها المشغول في خدمة البيت ورعاية الاطفال ، في سبيل تعليم نابليون الحروف الابجدية ، ولقد ساعدها في ذلك كل من عمه الاصغر يوسف فوش الذي يزيد عليه ست سنوات وعمه الاكبر « الفس لوسيان بونابرت » الذي لقنه طرفاً من تاريخ الانجيل

اما الكتابة والقراءة والحساب فهذه قد اخذها عن الراهبات ولما كانت المدرسة او

المكتب تقبل الاطفال ذكوراً واناثاً فقد كانت « جياكومينا » من ضمن التلميذات مع طفلنا الذي خُلِق لعظمة . . . . . والعظمة وليدة هيام المثل العليا . . . وقد يكون الهيام للتفوق في القتال ، والفوز على الاقران في الميدان . والقيادة للشعوب ، والحوزة لكل ما تصبو اليه النفس من متع الحياة ولذاذاتها . وقد يكون الهيام ان تحسن التأليف فتذكر علماً بين الاعلام ، وقد يدخل في الهيام طبعاً تصورك للمثل العليا في كل ما هو جميل ومرموق ومحبوب ، وفي ذلك طبعاً . . . « المرأة ! »

يخيل اليَّ ان العظيم بطبيعته نزاع الى الحب . . . . وهو في حبه لمثله العليا التي يصل لها امساءه بانهاره واصوله بأسحاره ويروح لها ويغدو ، ويتغنى بها ويشدو ، انما هو عامل في مملكتها ، وخادم في دولتها ، وعبد في قبضتها !

وإذن ماذا ؟

يكون ذلك العظيم الذي يقهر الممالك ويقود الشعوب . ويدّ على الاقران ويشار اليه بالبنان ، والذي هو مرتفع باستعداده ومواهبه وكفاياته على مصاف الجميع — . . . . . يكون المقهور لمثله العليا ، المغلوب على امره لموضع هدفه وقواته ، الصاغر الاذل لقبالة حواريه . . . . . وبعبارة اقرب الى الفهم يكون المطواع المستهام للمرأة التي يحب . . .!

شيء من التفكير البطيء يجعلنا نقتنع بان لا تناقض في عظمته مع هذا الخور في نظر البعض ، والنزع الطبعي في الخلق الانساني . . . لان العظيم ما عَظُمَ الاّ بمبالغة في جهوده للاقتران من مثله العليا التي شغف بها واخلص لها . فهذه المبالغة في الشغف والاخلاص من شأنها المعين لحبه وهيامه ، لنوع آخر من المثل العليا . . . . هو نوع المرأة . ولماذا نحرم المرأة من ان تكون معنىً سامياً وخيالاً رائعاً والحياة كلها معان وخيالات . ومع كل فلا تمت من تناقض بين قوة العظيم في حكمه وسلطانه ، وضعفه ازاء غرامه وهيامه . ثم لماذا لا نعترف ان العظمة انسانية في قوتها وضعفها ، في زكاوتها وخورها ، واستخذائها ، في عزتها واتضالها

—٧—

الى ذكر « جياكومينا » . . . . . !

لنتقل هنا الموجز التصوري لخلق طفلنا بريئة المؤرخ ابوت ، حيث يحدثنا عنهُ بانهُ وضع وهو في الخامسة او السادسة في مدرسة اطفال حيث نالت حبه فيها ابنة صغيرة هي « جياكومينا » . وكانت اول حب له . وكانت موضع عنايته في الغداة والمراح . وكانت زميلته وقرينته ، وملازمته في الذهاب والجيئة . ولقد تبادلا شعلة الحب وضرامه . وتشاركا

جذوة الفراء وهيامه . وكانا مدار غمز اقرانهم ونزقهم ، وهنا موضع استفاضة من طفل في السادسة ونزعته التي جبته بها الطبيعة خليقة بمعاناة من نظرتك جديرة بجولة من ذكاوتك. والواقع ان جويته محقٌّ فيما احس به وآمن بان قصة نابليون لتثير في النفس اثر الوحي على الانبياء ، لانا جميعاً — كما يقول ذلك العبقري الالماني — نشعر بانها تحمل في طياتها شيئاً كثيراً وان كنا لا نعلم من امره شيئاً . . . . . !

موضع الاستفاضة عن طفلنا وهو في هذا السن ، وهو في هذا الحب أن اقرانه قد لاحظوا — لا سيما من كانوا اكبر منه سناً من بنين وبنات — ان نابليون قد شرد عنهم بحبيته ، واعتزلهم قصيًّا بفاتنته ، فلا مشاركة في ألعابهم ، ولا مشاطرة في مباهجهم ، فسخر الجميع من حب الطفلين فماذا كان من نابليون ؟

سراعاً الى ذخيرة الحرب . . . . حرب الطفولة وذخيرة الطفولة !

الى الحصى والحجارة والعصي وكل ما تصل اليه يداه لمنازلة عداته من الاطفال ممن كانوا اطول قامة واسناناً ، واضخم اجساماً واحجاماً

ولقد كانت طريقته في حرب الطفولة الارتماء على الاعداء ، والمخاطرة في الهجوم ، والاستبسال في النزال . وعدم الاحجام او التفكير في العواقب حين اقدم على المناجزة والقتال

تلك هي حرب الطفولة . حرب من يريد احترام الغير له ، واحترام زعامته على الغير ، واحترام حبه ومشيئته ، واحترام رغبته وارادته ، حتى في السادسة من طفولته . وهنا يصح التساؤل ماذا كانت نتيجة تلك الحروب الاولية ؟

[illegible]

العواقب ما دامت تشفي غلته ، وتكتب له انتصاراته . . . . . !

ولقد كان نابليون في هذا السن من طفولته . . — وربما في اسنان اخرى لما سنلاحظ فيما بعد — مضاء في اهماله في امر لباسه . . . فجواربه مدلاة الى اسفل الحذاء . . ويذكر لنا « ابوت » وغيره في هذا الصدد ان طفلاً من زملائه الفاريت وضع منظومة انشدها الاطفال المغيظون في بهو المدرسة يسخر فيها من نابليون في لباسه وتدلي جواربه من ناحية وفي حبه وغرامياته « لحيا كوميتا »

—٨—

من هذا المكتب الاولي انتقل صاحبنا الى مكتب ارقى ومنهُ الى مدرسة اعلى وهي « الاب ركو » . واذا قيل بانهُ لم يكن طالباً متفوقاً فيجب ان يقال بانه كان شديد الشغف في هذا السن بالرياضيات والجغرافيا . ومما يذكره المؤرخون في هذا الصدد انه لما

كان طفلاً صغيراً ركب مهراً نشطاً فارهاً ومر على مطحن دقيق في الطريق وسأل الطحان كم من القمح يطحن في الساعة ، والح عليه في معرفة الواقع . ونابليون خلق هكذا ملحاحاً ولما وقف على جلية الامر انزوى في مكان وقام بعملية الحساب ليرتع نهمته في معرفة مقدار ما يطحن الرجل في اليوم وكم يطحن في الاسبوع

ستقول وما لذته . لا ادري . ولكنني أقول ان هذا الحساب وتلك الهيامات الطفولية بالحساب وعمليات الحساب كم أفادته وأسعفته في مواقع القتال وتعبئة الجنود

وهنا يذكر المؤرخون تلاعبه الخشبية التي سمحت له الوالدة باقامتها ... والتي كم ضرب وركل شقيقه يوسف اذا ما اقترب من باحتها ، أو وصلت يداه الى ساحتها ، فهنا تنهمر عليه حجارة من جام غضبه ، وحجارة من ظهر الارض . . . . !

وأثق انك لن تتساءل هنا عن مغزى هذا التصرف ، وما مغزاه في الطفولة ، وبماذا ينبىء في الكبر .... ولكنك ستطالبني بالكلام عن تعليمه في « برين » . ولست أشك انك لاتزال تذكر إضافة الوالد وان يوسف أعيدَ ليكون قسيساً ولماذا لايعدّ نابليون لذلك . لولا أن الوالد ، المحامي السابق ، والمؤيد « لماريف » أحد المندوبين الفرنسيين المبعوثين من ملك « فرنسا » لحكم كورسيكا كان يعطف على الوالد ... وربما كان لعطفه ومعونته في الحاق الطفل الذي لم يقطع العاشر بعد في مدرسة حربية من مدارس الحكومة الفضل الاكبر في بعث نابليون برسالته الى العالم الذي اختلف قضائه فيما اذا كان قد سعد به أم شقي ؟ والذي أراهُ في إيمان وإخلاص إن في كلّ شقاء سعادة كما في كل سعادة شقاء ، ولكل عجز مروج . ولكل متقدم مسفر . وفي البرد حرارته . وفي الحر برودته . ولكل شيء خيره وشره . وفي كل شيء نعمته ونقمته !

وفي عتقي لك قبل تحدثنا عن « برين » وتعليمه فيها ان اتحدث عليه عن المدارس الحربية في عهد تلمذة بطلك العظيم ، ففي ذلك بعض الفائدة لاتصاله بما أصاب مترجمك من حظٍّ لم يتم إلا القليل من نظرائه وأترابه

يوجد في فرنسا حينذاك اثنى عشر مدرسة حربية ملكية يسمح فيها بدخول عددٍ معيَّن من أولاد الطبقة الارستقراطية بلا أجر يدفعونهُ لتعليم أولادهم لتربيتهم وفترهم وقد لا يستغرب طبعاً حينما نقول ان هناك ارستقراطية فقيرة معدمة . لأنك تعلم من أمر شباب أرستقراطية العباسيين والعلويين الذين عاشوا في كنف بني أميّة مثلاً للهو واللعب والشراب أو للمتاع بما يصيبونهُ من امدادات الخلفاء الأموين المادية لشراء أعناقهم وافساد همهم واخماد نشاطهم وتربية روح الكسل فيهم ما يجعلك تتصور أمثالهم في الأمم غيرهم .

بل أنت لا تستغرب ان هناك ارستقراطية فقيرة معدمة في ذلك العهد الذي أعقب عهود الاقطاعات من ناحية وعهود الثورات من ناحية وعهود تقدم حقوق الانسان ومساواة الانسان بأخيه الانسان من ناحية أخرى . . وأخيراً انت لا تستغرب ان هناك ارستقراطية فقيرة معدمة في تلك الأيام لأنك تعلم ماتال السراة والنبلاء فيها من نفي ومصادرة وتشريد ومن مصادفة ملوك تنصب وغداً يخلعون . لا سيما وان الدهر انقلب وتحول بطبعه ومزاجه كان حينذاك كثير العدو والطيران في تقلبه في نعمائه وبأسائه وتجهماته وابتساماته . ولانك تعلم ما بذل هؤلاء النبلاء الارستقراطيون من مال وتضحيات في سبيل المحافظة على أنكارهم ومكانة سلالتهم ورفعة احسابهم ولو من الناحية الشكلية فقط . . . . والمصيبة كل المصيبة هي من هذه الناحية الشكلية قبل أي اعتبار.

ولقد نجح « مارفف » في الحصول على مكان لنابليون في أحد تلك المدارس . واضطر والدهُ طبعاً الى الحصول من ناحية هو الآخر على شهادات قدمها للسلطات الحكومية للدلالة على فقره من جهة وانهُ يرجع الى طبقة النبلاء من أربعة جدود . . . . !

إذن فقد وُفِّقَ والد نابليون في ادخال ولده في المدرسة الحربية وذلك بشهادات فقره وشهادات نبله وطيب اروميته وعراقة سلالة بيته وبذلك قد تذلل ما اعتور الشاب في سبيل الحاقه بها .

بقيت بعد ثمة صعوبة يجب تذليلها هي الاخرى . وكل صعوبة يجب ان تذلل أمام الارادة القوية والرغبة القوية ، تلك الصعوبة هي ان شاب كورسيكا في ذلك الحين يعرفون الايطالية ويكادون يجهلون الفرنسية . وإذن فيجب أن يتعلم الشاب الفرنسية . ويجب أن يدرس [illegible] . وينتقل نابليون ومعهُ شقيقهُ يوسف وعمه فوش وابن عمه أورليو فارس ووالده الفقير شارل ماريا « بونابرت » الى جامعة أوتون

ويصح للمؤرخ أن يتساءل هنا أو أن يتصور هنا أحاسيس بطلنا الصغير ومبلغ خيالاته وكل عظيم خصب الخيال طبعاً حتى في طفولته وشبابه — أقول يصحُّ للمؤرخ أن يتساءل ماذا كانت أحاسيس نابليون وهو مارٌّ في أراضي أسرة مديسي ذات التاريخ الذهبي في المدنية الأوربية والحضارة العالمية ؟

ولعلك تطالبني الآن بما كان من بطلك في « برين » ثم ما كان منهُ في مدرسة المدفعية في باريس ثم ما كان منهُ حين عودته الى كورسيكا . ثم ما كان منهُ كضابط ثانيه . وما كان منهُ كمؤلف جديد ..... وجيل جداً أن أحدثك عن ملح من هذا ... وأجل من ذلك وعدي وارتهاني لذة التنفيذ في القريب العاجل ان شاء الله